أرجوك .. لاتمدحنى!

خبايا الصور

معًا إلى الأبد فى نعيم الجحيم

أديب يعيش فى جو ملوث بسموم النفاق والقلق . . اختنق . . سلخ جلد ماعز وصنع به حزاما . . واشترى مسامير ودقها عليه . . وكلما سمع كلمة مدح وتقريظ لف الحزام حول خصره حتى تغرز المسامير فى لحمه . . فينزف ويسيل دم غزوره . . ويتواضع ويرى عبوره .

بعد أن انتهى تولستوى من « الحرب والسلام » قام برحلة فى شمال روسيا . . وأثناء وجوده فى مدينة « ارزامامس » زاره الموت زيارة ودية . قامت فى جلده . . فأعجب الموت برعب هذا الحى منه . وقرر أن يداعبه مدى الحياة . يدغدغة أعصابه . وفكر تولستوى فى كتابة قصة عن بطرس الأكبر . ثم سرعان ما تركها بعد كتابة بضع صفحات منها . . وتحول إلى تعليم وتعلم اللغة اليونانية . . فارهقت الذاكرة صحته . وانتابته نوبات سعال مصحوبة بنوبات رعب من الموت . فتكلمت الحياة وانجبت له سونيا طفلها الخامس . . فكرهها لا لشىء سوى أنها تحمل الحياة وتلدها فى حين يحمل هو الموت فى أحشائه حسب اعتقاده . . وعاملها ببرود فعامله بالمثل . وتجمدت علاقاتهما وصارت فى جمود الموت . كما ذكرت فى الأسبوع الماضى .

قلق الشفق

ابتسم ربيع بلا ازهار بين أغصان بلا أوراق . . وكما يعرض المنسول أغصانه المشوهة على المارة . عرض تولستوى وجهه بأحزانه ومخاوفه على سونيا . . فرقت لبؤسه قلبها وروض الصقيع البرود . وشريا معا للازورد . واقنعته بضرورة السفر إلى منطقة حمارا لعلاج نفسه « بالكومیس » كما فعل فى عام ١٨٦٢ . فأسعده قلقها على صحته وسعل سرورا . . وخوفا من أن يتعرض أثناء الطريق لكابوس « ارزامامس » اصطحب معه بالإضافة إلى خادمه ، سنجاب يعز شقيق زوجته .

وأقام فى قرية كراليك مع البدو « البشكير » الذين رحبوا بعودته إليهم بعد غيبة تسع سنوات واستأجر خيمة من الخوص . أثاثها مكون من سرير من الثلج ومقعد ومنضدة وطبلية . واحترم الرجيم الغذائى المفروض عليه رغم صرامته . . ولم تشهد طبلته لا الخبز ولا اللحم ولا الخضراوات ولا التوابل . إنما فقط الخراف المشوية على الخطب و « الكومیس » . . وهو لبن مختمر فى قرب من الجلد تقوم بإعداده نساء البدو من لبن الحجر انثى الفرس . ويقال إن لحم الضأن الصغير الذى لا يتجاوز عمره ستة يوم الأعضاب المنهارة . ويقوى البصر ويحده . وينشط الدورة الدموية . ويعيد الجسم بالعافية والحيوية . . وكبده تقوى الكبد . وقلبه يقوى القلب . أما مخه فيزيل من يأكله . يثبله ذهنه . ويفقد ذاكرته . ويخرف ويصير كالخروف قليل الحس والإدراك . ويقال إن لبن الحجر يشفى الصخر والكرب . ويشفى الصدر من الهموم . ويقطع السعال والبلغم . ويشفى على السل والربو . ويزيل آلام المعدة والظهر .

ولم يأكل تولستوى مع الخروف . وشرب كل يوم ست زجاجات لبن . ولم يرتو قلقه بل ازداد ظمأ . . فكل مساء ، فى الساعة السادسة أحس بنفس الاختناق الكئيب الذى أحس به فى أرزامامس . . فقد عاد الموت إلى مداعباته السخيفة له ، ودغدغ أعصابه ، وليس من العدل فى شىء أن يتعذب وحده فى حين تنعم سونيا بالراحة وهدوء البال . . يجب أن تكتب وتختبر وتحتضر معه . . وكتب إليها :

« لا أعرف كيف أصف هذا الإحساس . . إنه نوع من الحمى . . قلق جسدى . . لعل أصدق القول وأحسن التعبير إذا قلت ببساطة إننى أحس بأن روحى تتخلع من جسدى . أما عن قلق المعدى عليك فإنى أمنعه من الظهور . . لا أفكر أبدا لا فيك ولا فى الأطفال . ولا اسمح لنفسى بالتفكير فيكم وإلا عدت إليكم على الفور . . لا أفهم شيئا فى حالتى . . فإما أننى سأصاب بالجنون واما سأموت . عزائى الوحيد أننى التقيت هنا بأستاذ للغة اليونانية ، ادرس معه اللهجات القديمة الدورية والأيونية . . وبفضله استنشق عطر هيرودوت فى خيام البدو » .

فردت عليه سونيا بحنق :

« مادمت تعتبر عمل مراجعة دراستك للغة اليونانية والتبحر فيها . قلق تشق أبدا . . هذه اللغة وأصحابها هم مصدر قلقك ومخاوفك ولا مبالاتك بالحياة الحاضرة . . إن هذه اللغة لم تسم اعتباطا لغة ميتة . . انها تزرع الموت فى النفس فيحصد العقل القلق » .

رمست حكمتها الساذجة أوتار قلبه . فعزف من جديد نشيد الحب . . وكتب إليها يوم ٢٨ يونيه ١٨٧١ : « وسائلك تورجنى أكثر من اللغة اليونانية بالانفعالات التى تثيرها فى . . أقرأ كلماتك فسيل دموعى . ويرتجف بدنى ويتزايل كيانى . ويخفق قلبى بحنون . . تكبين كل ما يخطر على بالك . . وبالنسبة فى فكل كلمة تستحدثينها هنا أحييها . اقرؤها ثم أعيد قراءتها إلى ما لا نهاية . . فى هذه اللحظة احبك إلى حد أننى أحس برغبة فى البكاء .

وحينما كلفته قسيت مأساة جيلها وأرسلت له آخر صورة فوتوغرافية لها . . وفيها تبدو صامتة . اضطرت إلى حلق رأسها بعد إصابتها بحمى التيفاس . . فلم يخف عنها جبينه الجمالية . وبصراحته القاسية كتب إليها : « وجدتك فى الصورة عجوزا وهزيلة وكئيبة . . وعادة فى البعد تصدمنا صورة وجوه من نحب ، فما بالك وأنا لا احبك فحسب بل اعبدك . . إن الخيال دائما يزيف ويزور الواقع . . والواقع دائما يفتقر إلى الكمال ولكن اصلحنى فقد تصالحت مع صورتك » .

ثم شيئا فشيئا تصالح أيضا مع الحياة . . واشترى كلبا وحصانا ، واصطاد البط فى السهوب ونط الخيل ، وزار ناسكا يعيش فى كهف ، والتقى أيضا بجماعة دينية تسمى « المولاخان » وتعيش على شرب اللبن . . وتجول مع شقيق سونيا فى القرى المجاورة . . وسمع عن ضيعة مساحتها ٢٥٠٠ هكتار معروضة للبيع . . فانتعشت شهيته للشراء . . فالأرض هنا تباع برخص التراب . والشمس تعامل البشر بحنان ولا تبخل عليهم بدفء أشعتها ، والحياة البدائية تشفى الروح والجسد من أمراض المدنية ، ولبن الحجر يقضى على فيروس القلق المنافيزيق . . فاشترى الضيعة وما عليها من ماشية بمبلغ عشرين ألف روبل . . أى ما يوازى اليوم بنقدنا ٢٤ ألف جنيه مصرى .

سيول الغيظ

وفى أوائل شهر اغسطس عاد إلى عزلته وابتسامة العافية ترفرف فوق محياه . . وحبس نفسه فى مكتبه لتحقيق حلمه الجديد . . حلم تربوى طموح . . تأليف كتاب مدرسى يقرأه أطفال روسيا جيلا بعد جيل سواء كانوا أبناء الامبراطور أو أبناء الفلاحين . . على أن يضم الكتاب قصصا وأساطير من التراث الشعبى العالمى ، وترجمة « لخرافات » الحكيم اليونانى ايزوبوس ، وبعض صفحات نموذجية من الأدب العالمى لشوناوك وهوجو وغيرهما . وهكذا يملأ الوطن بالحكماء والأبطال والشعراء .

فرقت سونيا أمام مرآتها . وتوسلت إلى وجهها أن يشفق عليها . . فقد جرفت سيول الغيظ قسماتها و غطاها جليد اليأس . ومثلما فعلها بالجليد وقطع الطريق على الشكوى والأنين . فلم تعد تر التأوهات والتنهدات من بين شفتيها . . فهو لا يسمعها . . إن الناشرين يطاردونه وعروضهم المغرية تنهال عليه . . إنهم على

استعداد لأن يدفعوا له عشرة آلاف روبل بدلا من ٥٠٠ روبل للصفحة الواحدة من روايته الجديدة . ولكنه يدير ظهره للأدب ويفضل « كتاب الهجاء الجديد » . . وفي روسيا آلاف المدرسين . ولكن تولستوي واحد . . وهو لا يريد أن يفهم ذلك . . فعلقت في أفواه حيل الأحزان ومشت فوقه . إذا طلب منها أن تخلع عينيها وتمشي بهما فوق أوراقه . وترى أصابعها وتيبس بها مسدداته . فعلت ذلك . . لكنه ليس بحاجة لا إلى نور عينيها ولا إلى أقلام أصابعها . . إنه يحرمها من تحقيق رسالتها في الحياة : أن تكون زوجة أديب . . يريدها فقط أن تكون أما وأرضا خصبة فأنجبت له طفلها رقم ٦ . . ولدا يسمى بتيا . يوم ١٣ يونيو ١٨٧٢ .

وتولستوي يحب الأطفال ولكن بشرط أن يكونوا كبارا . وهو نفسه اعترف بذلك حينما كتب :

« لا أحب الطفل إلا بعد أن يبلغ الثانية أو الثالثة من عمره . أما الطفل الرضيع فإنني لا أحبه . لأنني لا أفهمه . وهناك نوعان من الرجال : الصيادون واللاصيادون . . اللاصيادون يحبون الأطفال الرضع ويلاعبونهم . أما الصيادون فإنهم يخافون وينفرون من الطفل الرضيع ويشفقون أيضا عليه ولا أعرف استثناء لهذه القاعدة » .

ومع أطفاله الكبار كان يلعب ويلهو كالأطفال الصغار . . يضع أحد أولاده في سلة الغسيل ويحمله بملاءة . ويجره في كل أنحاء البيت . وكالقطار الشقاشق يتوقف به عند كل محطة ويطلب منه أن يخمن أين هو . وإذا تناسب أطفاله مثلا أثناء الأمسيات العائلية . كان يقفز من مقعده ويحمل في الحجرة حتى يقهقه الأطفال ويحجلوا وراءه . ومرة في عيد ميلاد أحد الأطفال ظهر حاو ومعه دب وخروف . وكان الخروف ليون تولستوي . وفي الشتاء كان يتزحلق معهم فوق الجليد . وفي الصيف كان يلعب معهم بالكرة . . وكل يوم سبت كان يأخذ معهم حمام بخار في كوخ من الخشب أعد خصيصا لهذا الغرض . ومع سونيا من أن يشتري لهم أية لعب من السوق لأن اللعب الجاهزة تقتل الخيال ، وينبغي على الطفل أن يصنع بنفسه لعبته ينمي خياله . والعقاب الذي وعد به الذي كان يتوعدا منها بابا . فالنوعين الصغيرة يجب ألا تضرب . . وإذا أخطأ أحد الأطفال . فلا أحد يلومه أو يعاقبه . ويكتفي الجميع بمعاملته ببرود . فيخجل ضميره ويعاقب نفسه بنفسه . ويعترف بذنبه أمام الجميع طالبا العفو .

وكان في بيو اليت صندوق بريد يضع فيه الكبار والصغار كل ما كتبوه طوال الأسبوع من قصائد شعرية وقصص قصيرة . وخواطر واعترافات . ويوم الأحد كانت تجتمع الأسرة حول نار المدفأة أو في الحديقة . ويفتح تولستوي الصندوق ويقرأ بصوت عال روائع فكره وفكر أولاده وبناته وزوجته . ولم يكن أحد يوقع باسمه على ما كتبه . . فأسلوبه يكفي . . وفي إطار لعبة صندوق البريد تقرر مرة اجراء تحقيق حول مثاليات سكان « ياسنايا بوليانا » . والطبع منه أن مثاليات تولستوي تتلخص في نقطتين : أولا : الفقر والسلام والوفاق . وثانيا أن يحرق كل ما أوقع به . وأن يوقع بكل ما أحرقه . .

أما مثاليات سونيا فتتلخص في نقطة واحدة : « أن تكون أما لثمانية وخمسين طفلا لا يكبرون أبدا » . . ثم طلب مرة أخرى من الملاعين أن يكتبوا قائمة بأسماء المتوهجين في البيت وأسباب جنونهم . . وجاء في القائمة . . المريض رقم واحد : ليون تولستوي . . وهو مجنون لأنه يعتقد أنه من الممكن أن يغير بالكلمات حياة الآخرين . والمريض رقم ٢ : سونيا تولستوي . وهي مجنونة لأنها تعتقد أن الجميع بحاجة إليها وإلى عدمانها ومهما تفانت في خدمتهم فلن ترضي أحدا .

وفي الخريف انتهى تولستوي من « كتاب الهجاء الجديد » . . وتذكر مشروع روايته التاريخية . . وعاد إلى بطرس الأكبر وعصره . . وقرأ . . وكتب في كراسة كل ما يتعلق بعادات وتقاليد وأزياء هذا العصر . وفي أخرى كل ما يتعلق بالقيصر والبلاط الامبراطوري . وفي ثالثة ملامح الشخصيات الرئيسية . وفي رابعة الخطوط العامة لروايته . وكل كتاب يقرأه يعيره بقراءة غيره . . وكلما تعمق في دراسة هذا العصر تاه فيه . . فلا نهاية للدراسات الشخصية . . ودار في دائرة مفرغة ودوامة . . وأحب بطرس الأكبر وكرهه . . أحبه لأنه قام بالعديد من الإصلاحات الداخلية . . وكرهه لأنه قتل ابنه اليكسيس . . ولأنه بنى مدينة سان بطرسبورج وجعلها عاصمة روسيا لا يبعد عن عواصم البلاد . . إنما ينغمس في الملذات مع رفاقه في الفساد والانحلال . . ولأنه شوه وجه روسيا الأصيل بإرغام الشعب على ارتداء الملابس الأوربية . . وبإرغام الأشراف على حلق ذقونهم . . وتولستوي يفخر بلحيته ويحترمها . . وكتب سبع عشرة مرة الجزء الأول من روايته . ومزقه سبع عشرة مرة . . في كل مرة يحطم قلمه تمثال بطرس الأكبر وانهاره تماما . كي يعمل من قبل مع نابليون بونابرت في « الحرب والسلام » . . ولكن نابليون كان عدو روسيا . وبطرس الأكبر فخر الأمة الروسية .

وفجأة اشرقت شمس الأمام . تذكر حادثا وقع في العام الماضي وتأثر به . . كان جاره وصديقه بيكوف يعيش منذ سنوات مع امرأة لطيفة ورقيقة تدعى آنا ستيانوفنا بيروجوفا . ورغم حبه لها لم يفكر في الزواج منها . ثم مال قلبه إلى مربية أطفاله الألمانية . وقرر أن يتزوجها . . فالتدلعت نيران الغيرة في قلب آنا واحرقته وهربت من البيت . وهامت على وجهها في الغابة ثلاثة أيام ثم ارتمت يائسة تحت عجلات قطار للبضائع في محطة ايازينكي . .

وقبل أن تموت أرسلت إلى عشيقها الخائن هذه الكلمة :

« أنت قاتل . . إذا أردت أن ترى حتى فهي في انتظارك فوق قضبان السكة الحديد في محطة ايازينكي » . . وحدث ذلك يوم ٤ يناير ١٨٧٣ . . وفي اليوم التالي للحادث توجه تولستوي بفضول الرواني إلى المحطة . وحضر تشريح جثة المنحورة الذي تم في غرفة ناظر المحطة وظلت هذه الصورة تطارده فترة من غير أن يفكر في استغلالها في رواية . . وكان قبل ذلك بعامين قد فكر جديا في كتابة رواية عن زوجة خائنة من الطبقة الأرستقراطية . وعندما انتحرت عشيقة جاره لم يربط هذا الحادث بموضوع المرأة الخائنة . . ولمدة عام عاشت حنا إلى جنب في ذهنه فكرة الخيانة مع فكرة الموت العنيف . . ثم شيئا فشيئا وبنيجة للعشرة والجوار تأثرت كل منهما بالأخرى وأثرت كل منهما في الأخرى . . واعطت بنت الأرض والواقع ثبات الخيال نهايتها المأساوية واسمها . . وضحكت « آنا كارنينا » على ذقن بطرس الأكبر وطردته نهائيا من خيال تولستوي .

وبعد أيام قليلة وتولستوي في حجرة ابنه سرج . رأى على المضمدة كتابا لدوستويفسكي . قصص بلكين » . . وتصفحه . . وتوقف عند قصة « أوراق منورة » . . وقرأ أول عبارة : « وصل الضيوف إلى البيت الريفي . . . » وسحرته هذه الطريقة البسيطة في الدخول مباشرة في الموضوع . . إن البساطة . آلة الفن . . ياليت الله يمنحه البساطة . وجرى إلى مكتبه وكتب : « بعد حفل الأوبرا التقى الضيوف في بيت الكونتسة فرانسكي . . . » أول عبارة في أول فصل « لآنا كارنينا » في مسوداته . . في النص النهائي وضع هذه العبارة في أول الفصل السادس من الجزء الثاني .

وفي اليوم التالي . ١٩ مارس ١٨٧٣ . كتبت سونيا إلى أختها تانيا . . فجأة تحل ليون عن بطرس الأكبر . . إنه بدأ أمس في كتابة قصة عن الحياة المعاصرة . . الموضوع : الزوجة الخائنة . . أنا سعيدة جدا جدا جدا » .

مسامير الغرور

وتولستوي كان اسعد مني . . فولادة شخصياته تمت بلا آلام . . وظل قلمه يجري على الورق بلا توقف تسعة شهور . . ثم تسلل الموت إلى بيته متخذا شكل ميكروب الدفتريا . وخطف منه اصغر أبنائه بتيا (١٤ شهرا ونصفا) . . وتحمل فجيعته برباطة جأش . وترك سونيا تبكي وتئن وتغرق في أحزانها . . وكتب بيرود إلى أخيه سرج يوم ١٠ نوفمبر : « مات بتيا أمس ودفناه اليوم . . سونيا لا تكف عن البكاء والولولة . . وحتى الآن خطاب من الناشر يخبرني فيه بأن الطبعة الخاصة التي تضم كل مؤلفاتي سوف تصدر يوم ١٢ من هذا الشهر . . اعتقد أنني يجب أن اسافر إلى موسكو . ما رأيك لو سافرنا معا بعد غد يوم ١٢ ؟ . . أنتظر ردك » .

هذا هو العظيم الذي يتمزق قلبه لآلام البشرية . . هذا هو العظيم ذو القلب الكبير . . يموت ابنه فيتعاه في كلمتين ، ثم يهتم بأعماله . ثم يتحجج بها ليهرب من بيته كي لا يسمع تأوهات سونيا الأم الثكلى .

وفي شهر مارس ١٨٧٤ انتهى تولستوي من الجزء الأول من روايته . فأنجبت له سونيا في شهر ابريل ولدا سمي نيقولا . . فاعتقد تولستوي أن صرخة الحياة سوف تقرع الموت فيهرب بعيدا من البيت . . ولكن سرعان ما خاب ظنه . . ففي شهر يونيه ماتت عمته تواتيت التي كانت تعيش معه في بيته والتي كانت بمثابة الأم له فهي التي ربته .

وفي شهر فبراير ١٨٧٥ بدأت جريدة « الرسول الروسي » في نشر الجزء الأول من « آنا كارنينا » . . فزاره الموت في شهر فبراير وخطف منه نيقولا آخر مولود له . . فانهارت أعصاب سونيا . . واستمر قلمه في القفز بحرح فوق الورق . فبعد يومين فقط من وفاة ابنه كتب إلى صديقه الشاعر فيت : « سونيا غارقة في الأحزان من جديد . . أما أنا فأحس براحة مرحة في العمل لم أعرفها قط من قبل . . تقول إن « آنا كارنينا » تعجبك بل تعجب كل الناس . . أرجوك لا تمدح رواياتي ! . . كان باسكال يقف حول حصره حواجز من مسامير كلما سمع كلمة مدح وزلقت له . . وأنا بحاجة إلى مثل هذا الحزام . . وإذا كنت صديقي فعلا فلا تكتب إلي تمدح رواياتي . . إنما لتجز في عيوبها ونقاط ضعفها » .

وأصيب الأطفال بالسعال الديكي . . وانتقلت العدوى إلى سونيا وكانت حاملا في شهرها الثامن . فأنجبت في أكتوبر بتا ماتت بعد نصف ساعة من ولادتها . . وتدهورت صحتها وأصيبت بالتهاب الصفاق . . وبدلا من أن يخفف زوجها ذو القلب الكبير آلامها وأوجاعها وأحزانها لموت ثلاثة من أطفالها خلال ثلاث سنوات . فرح منها وتذمر من مرضها . . وكتب بأنانيته المعهودة إلى أخيه سرج : « أبشع شيء بالنسبة للرجل الذي يتمتع بكامل صحته وعافيته أن تكون زوجته مريضة » .

ورغم عطر الموت الذي يلفهف حوله واصل تولستوي كتابة روايته . . وبهضت سونيا من فراش المرض وبيضت مسوداته . . وفي خريف ١٨٧٧ كتب تولستوي آخر فصل في « آنا كارنينا » فأنجبت له سونيا في ٦ ديسمبر ولدا سمي ليفريه .

واحتفت أول طبعة من السوق في اسبوع . . وتصوف تولستوي . ولكن هذه حكاية يطول شرحها . □